الطلقاء »[1] فكأن الله عز وجل يقول للخَيِّر : اجلس أنت واسترح ، واترك الأشرار لى ، فسوف أرسل عليهم من هو أشرّ منهم ليؤدبهم .

واختار الحق هنا حاسة السمع ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] لأنها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف ، فبها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر ، وفي موضع آخر سيقول ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] ويقول : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس] فيُنوِّع لنا ، ويُقلِّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها .

والمعنى ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظالمين ، لقد نبهناهم وذكَّرناهم ، ومع ذلك أشركوا وجعلوا سمعهم (ودن من طين ، وودن من عجين) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ[2] فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

أولاً لك أن تلحظ هنا توافق النسق القرآنى بين صدر الآيات وعَجُزها ، ففى الآية السابقة قال سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] أى : يدلُّ ويرشد ، والكلام فيها عن قصص تاريخى ، فناسبها ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] أما هنا فالكلام عن مشاهد

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) أرض جُرز : لا نبات بها كأنه انقطع عنها ، أو انقطع عنها المطر . [لسان العرب ـ مادة : جرز] فهى الأرض الجدباء التى لا نبات فيها أو التى أكل نباتها أو هلك لأى سبب . [القاموس القويم ١/١٢٠] .

مرئية ، فناسبها ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] فهذا ينبغى أنْ يُسمع ، وهذا ينبغى أنْ يُرى .

وفى الآية السابقة قال سبحانه ﴿أَهْلَكْنَا.. (٢٦)﴾ [السجدة] لنعتبر بإهلاك المكذبين فى الماضى ، أما هنا فيلفتنا إلى آية من آياته فى الكون ، فيأتى الفعل ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ.. (٢٧)﴾ [السجدة] بصيغة المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار ، ففى كل الأوقات يسوق الله السحب ، فينزل منها المطر على الأرض (الجرز) أى : المجدبة ، فتصبح مُخضرة بأنواع الزروع والثمار ، وهذه آية مستمرة نراها جميعاً ، ولا تزال فى الحال وفى الاستقبال ، ولأن هذه الآية واقعة الآن تحتاج منا المشاهدة والتأمل قال فى ختامها ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ [الكهف] فالجُرُز هى الأرض المقطوع منها النبات ، إما لأن الماء شحّ عليه فجفّ ، وإما أنه استُحصد فحصدوه .

ومعنى ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ .. (٢٧)﴾ [السجدة] السَّوْق : حَثٌّ بسرعة ؛ لذلك تقول للذى يتعجلك (ما لك سايقنا كده) ، ومعلوم أن السَّوْق يكون من الوراء ، على خلاف القيادة ، فهى من الأمام ، فالذى تسوقه تسوقه وهو أمامك ، تراه فلا يتفلت منك ، ولو كان خلفك فهو عُرْضة لأنْ يهرب منك ، فلا تشعر به .

والسَّوْق مرة يكون للسحاب ، كما فى قول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ .. (٩)﴾ [فاطر]

ومرة يكون السَّوْق للماء نفسه كما فى هذه الآية ، وسَوْق الماء له عدة مظاهر : فالله يسوق الماء من السحاب إلى الأرض ، فإذا نزل

إلى الأرض ساقه في الأنهار ، أو سلكه ينابيع في الأرض ليحتفظ لنا به لحين الحاجة إليه .

فربُّنا - عز وجل - جعل لنا خزانات للماء تحت الأرض ، لا لنحرم منه حين يوجد ، لكن لنجده حين يُفقد ، وكون الماء ينابيع في الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا ، فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها ، مما يحفظ لنا الماء العَذْب .

لذلك يقول النبي ﷺ : « مثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً - أرض خصبة - قبلتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فشرب الناس منه وسَقُوا أنعامهم وزروعهم ، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم »(١) .

فهذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بالعلم ، فالأولى تمسك الماء ، وتُخرج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ، ولك أن تسأل : فما فائدة الثالثة : القيعان التي لا تُمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هي التي تسلك الماء في باطن الأرض ، وصدق الله : ﴿ **فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (٢٢) ﴾ [الحجر] وقال سبحانه : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** (٣٠) ﴾ [الملك]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٩٩/٤) وابنه عبد الله في زوائده على المسند (٣٩٩/٤) ، والبخاري في صحيحه (٧٩) كتاب العلم (٢٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري .

إذن : هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فَطن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أنَّ الماء حين يسلكه اللهُ ينابيعَ فى باطن الأرض يسيح فيها ، أو يحدث له استطراق سائلى يختلط فيه العذب بالمالح ، لا .. إنما يسير الماء العَذْب فى شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين المائيْن على وجه الأرض ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن] كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

فالحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذه الآية المشاهدة ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ .. (٢٧)﴾ [السجدة] نعم ، هذه آية نشاهدها جميعاً ، لكن المراد هنا مشاهدة تمعُّن وتذكّر وعظة وتعقُّل ، نهتدى من خلالها إلى قدرة الخالق عز وجل .

وقوله سبحانه ﴿أَنَّا نَسُوقُ .. (٢٧)﴾ [السجدة] فيه دليل على قيُّوميته تعالى على الخلق ، فإنْ كان سَوْق الماء يتم بواسطة الملائكة المكلفين به ، إلا أنه تعالى صاحب الأمر الأول والمتتبع لعملية تنفيذه .

وقدَّم الحق سبحانه الأنعامَ على الإنسان فى الأكل من الزرع ، مع أنها كلها مملوكة للإنسان ؛ لأن الأنعام فى الغالب ما تأكل من

الزرع ، وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، ليأكل منه الإنسان ، وأيضاً هو سبحانه حين يطعم الأنعام فإنما يطعم مَنْ جعله له فاكهة طعام ، وهى الأنعام .

وأشرْنا إلى أن دقَّة البيانِ القرآنى اقتضتْ أنْ تختم هذه الآية المشاهدة بقوله تعالى : ﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] لأن هذه مسألة تتعلق بالبصر .

ولك أنْ تقرأ فى مثل هذه الدقَّة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

فقال فى الأولى ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية الليل ، والسمع هو وسيلة الإدراك فيه ، وقال فى الأخرى ﴿ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية النهار ، والبصر هو وسيلة الإدراك فى النهار ، إذن : نلحظ دقَّة الأداء وإعجازه ؛ لأن المتكلم إله ورب ، فلا بُدَّ أنْ تجد كل لفظة فى مكانها المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾

(متى) يُستفهم بها عن الزمان ، والاستفهام بها يدل على أنك استبطأت الشيء فاستفهمتَ : متى يحدث ؟

الرسول ﷺ حين بُعث أخبر قومه أنه مُرْسَل إليهم بمنهج من الله ، وقد أيده الله بالمعجزات ، وأخبرهم بمصير مَن اتبعه ومصير مَنْ

خـالفه ، وأن ربه ـ عـز وجل ـ مـا كان لـيرسله إليـهم ، ثم يُسْلمـه أو يتخلى عنه ، فهـو لا بُدَّ منتصر عليهم ، فهـذه سنة الله في أنبيائه ورسله ، حيث قال سـبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

لذلك قلنا : إذا رأيت موقفاً لم ينتصر فيه المـسلمون ، حتى في حـياة الرسـول ﷺ وحيـاة الصـحابة ، فـاعلم أن الجندية عندهم قـد اختلتْ شروطها ، فلم يكونوا في حال الهزيمة جنوداً لله متجردين .

وحـين نتـأمل الأحـداث في (أحُـد) نجـد أن الله تعـالى يقـول للمسلمـين : لا تظنوا أن وجود رسول الله بينكم يحمـيكم أو يُخرجكم عن هذه القضية ، فهذه سنة الله في كونه لا تتبدل .

ففي (أُحُد) خالف المسلمون أوامر رسول الله ، حين نزل الرماة وتركوا أماكنهم طمـعاً في الغنائم ، فالتفَّ عليهم المشـركون ، وكانت النتـيـجة لا نقـول انهـزموا ، إنمـا هم لم ينتـصـروا ؛ لأن المـعركـة (ماعت) والرسول موجود بينهم[1] .

والبعض يرى في هذه النتـيجة التي انتـهتْ إليها الحـرب في أُحُد مأخذاً ، فيـقول : كيف يُهزم جيش يقوده رسـول الله ؟ وهذه المسألة تُحسَب للرسول لا عليه ، فالرسول لن يعيش بينهم دائماً ، ولا بُدَّ لهم أن يروْا بأعـينهم عاقـبة مـخـالفتـهم لأمر رسـول الله ، وأنْ يشـعـروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » (السيرة لابن هشـام ٣/ ١٠) وأورد البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعـهم للفوز بالغنائم ، فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فمـال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً » .

بقداسة هذه الأوامر ، ولو أنهم انتصروا مع المخالفة لفقدوا الثقة في أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولِمَ لا وقد خالفوه في أُحُد وانتصروا !!

كذلك في يوم حنين الذي قال الله فيه : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .. (٢٥) ﴾[التوبة]

وكان من إعجاب المؤمنين بكثرتهم أن يقول أبو بكر نفسه : لن نُغْلَب اليوم عن قلة ، لذلك لقَّنهم الله تعالى درساً ، وكادوا أنْ يُهزموا ، لولا أن الله تداركهم في النهاية برحمته ، وتحوَّلت كفَّة الحرب لصالحهم ، وكأن التأديب جاء على قدر المخالفة .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا امتثال أمره ، وأنْ نخلص في الجندية لله سبحانه ، وأن ننضبط فيها لنصل إلى الغاية منها ، فإنْ خالفنا حُرِمْنا هذه الغاية ؛ لأنني لو أعطيتُك الغاية مع المخالفة لما أصبح لحكمي مكان احترام ولا توقير .

وهنا يحكي الحق - تبارك وتعالى - عن المشركين قولهم لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨) ﴾ [السجدة] أي : النصر الذي وعدكم الله به ، وقد كان هذا النصر غاية بعيدة المنال أمام المؤمنين ، فما زالوا قلَّة مُسْتضعفة .

لذلك لما نزل قول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب عمر حتى قال : أيُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع أنْ نحمي أنفسنا ؟ لكن الحق سبحانه لم يُطل عليهم هذا الوضع ، وسرعان ما جاءتْ بدر ، ورأى عمر بعينه كيف تحقَّق وعد الله ، وكيف هُزِم جَمْع المشركين ، ورددها بنفسه بعد المعركة : نعم يا رب ، سَيُهزم الجمع ويولون الدبر[1] .

---

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يُهزم ؟ أي : أي جَمْع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : « سَيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير في تفسيره (٢٢٦/٤) وعزاه لابن أبي حاتم .

ومن العجيب أنْ يدل رسول الله على الكفار وعلى أصحابه وأنصاره بفيض الله عليه ، وأنه أخبره بنتيجة المعركة قبل حدوثها ، فيقف ﷺ فى أرض بدر ، ويشير بعصا فى يده إلى مصارع المشركين : هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة ، وهذا مصرع الوليد(١) .. الخ .

فمَنْ يستطيع أنْ يحدد نتيجة معركة بهذا التفصيل ، والمعركة أخْذٌ وردّ وكرّ وفرّ واختلاط ، مع أنهم لم يخرجوا لحرب ، إنما خرجوا لملاقاة قافلة قريش التجارية ، فما بالك لو خرجوا على حال استعداد للحرب ، وهذه سيأخذها الكفار قياساً يقيسون عليه قوة المسلمين الوليدة ، وسيقذف الله بهذه النتيجة الرعب فى قلوب الكفار ، ولم لا وقد انتصرتْ القلة المستضعفة غير المجهزة على الكثرة المتعجرفة المستعدة للحرب .

والاستفهام هنا ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨) ﴾ [السجدة] ليس استفهاماً على حقيقته ، إنما يراد به الاستهزاء والسخرية ، وجواب الله على هذا الاستفهام يحدد نيتهم منه ، فهم يستبعدون هذا النصر وهذه الغلبة التى وعد الله بها عباده المؤمنين ، لكنهم يستبعدون قريباً ، ويستعجلون أمراً آتياً لا ريب فيه .

وقد سجَّل القرآن عليهم مثل هذا الموقف فى قوله تعالى حكايةً عن الكفار يقولون لرسولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

كلمة (الفتح) إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

نعمة محروسة لك سينالك نفعها ، فإنْ جاءت نكرة فلا بُدَّ لها من متعلق يوضح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؛ فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ ، فهو غُنْم لا غُرْم ، كما يقولون فى حسابات البنوك : له وعليه .

أما الأخرى ، ففى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ۝٤٤﴾ [الأنعام]

إذن : تنبَّه لما يفتحه الله عليك ، ولا تغترَّ به ، وتأمَّل : أهو لك أم عليك ؟ وإياك أنْ تُطغيك النعمة إذا (زهزهتْ) لك الدنيا ، فلعلها استدراج وأنت لا تدرى ، فالفتح يحتمل المعنيين ، واقرأ إنْ شئتَ :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ۝٩٦﴾ [الأعراف] أى : احذروا هذه النعمة لا تطغيكم .

وكلمة (الفتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، يحددها السياق ، كما قلنا فى كلمة العين ، فتأتى بمعنى العين الباصرة . تقول : رأيت فلاناً بعينى ، وتقول : جُدْت على فلان بعيْن منى أى : بالذهب أو الفضة ، وتقول : سمحتُ له أنْ يروى أرضه من عينى أى : عين الماء ، وتقول : هؤلاء عيون فلان أى : جواسيسه . وهذا يسمونه : المشترك اللفظى .

وكلمة (الفتح) تستخدم أولاً فى الأمر المادى ، تقول : فتحتُ الباب أى : أزلت مغاليقه ، وهذا هو الأصل فى معنى الفتح . فالحق سبحانه يقول فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. ۝٦٥﴾ [يوسف] ففتحوا متاعهم الفتح المادى الذى يزيل عنه الأربطة .

وقد يُراد الفتح المعنوى ، كما فى قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة] أى : بما أعطاكم الله ومنحكم من الخير ومن العلم .

ويأتى الفتح بمعنى إظهار الحق فى الحكم بين حق وباطل وتجلية الأمر فيه ؛ لذلك يسمى أهلُ اليمن القاضىَ (الفاتح) .

ويأتى بمعنى النصر والغلبة ، كما فى هذه الآية التى معنا : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾ [السجدة] ولابد أنْ يقول المؤمنون فى إجابة هذا السؤال : نحن لا نقول أننا صادقون أو كاذبون فى هذا الخبر ؛ لأن هذه مسألة بعيدة عنا ، ولا دخْلَ لنا بها ، إنما هى من الله الذى أخبرنا هذا الخبر ، فنحن لا نُوصَف فيه ، لا بصدق ولا بكذب .

ولكى يكون الإنسان عادلاً ينبغى أنْ ينسب الفعل إلى فاعله ، أرأيت رسول الله ﷺ حين أخبر قومه خبر إسرائه قال : « لقد أُسْرِى بى الليلة من مكة إلى بيت المقدس »[1] ولم يقل سريت ومع ذلك سأله القوم : أتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وهذه مغالطة منهم ، لا عدم فهم لمقالة رسول الله ؛ لأنهم أمة كلام ، ويفهمون جيداً معانى الألفاظ .

إذن : رسول الله ما سَرَى بذاته ، إنما أُسْرِى الله به ، فمَنْ أراد أن يبحث هذه المسألة فليبحثها فى ضوء قدرة الله ، وكيف يكون الزمن بالنسبة لله تعالى ، وقلنا : إن الفعل الذى يستغرق زمناً هو

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) كتاب الإيمان ، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

الفعل العلاجي ، إنمـا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ لا يعالج الأفـعال ، فقط يقول كُنْ فـيكون ، والفعل يتـناسب مع زمنه تناسبـاً عكسياً ، فـكلما زادت قوة الفاعل قَلَّ زمن الفعل . وعليـه لو نسبتَ حادثة الإسراء إلى قوة الحق تبارك وتعالى لوجدتَ الزمن لا زمن .

ثم يجيب الحق تبـارك وتعالى عن سؤالهم ﴿ مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨) ﴾ [السجدة] بمـا يفيـد أنه سؤال اسـتبـعاد واسـتهـزاء ، فيـقول سبحانه :

﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ[1] لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) ﴾

أي : لمَ تسألون عن يوم الفتح ؟ وماذا ينفعكم العلم به ؟ إن يوم الفـتح إذا جاء أُسْدل الستـار على جرائمكم ، ولن تنفـعكم فيـه توبة أو إيمان ، ولن يُنْظركم الله إلى وقت آخر .

ومعلوم أن الإيمـان لا ينفع صاحبـه إلا إذا كانت لديه فُسْـحة من الوقت ، أمـا الإيمـان الذى يأتى فى النزع الأخـيـر ، وإذا بلغت الروح الحلقوم فهو كإيمان فرعون الذى قال حين أدركه الغرق : ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس] فردَّ الله عليـه هذا الإيمان ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

الآن لا ينفع منك إيمـان ؛ لأنك مُـقْـبل على الله ، وقـد فـات أوان العمل ، وحَلَّ أوان الحـساب ، الإيمان أنْ تؤمن وأنت حريص صـحيح تستقبل الحياة وتحبها ، الإيمان أن تؤمن عن طواعية .

---

(١) قال قتادة : الفتح القضاء . وقال الفراء والقتبي : يعني فتح مكة . قال القرطبي في تفسيره (٥٣٧١/٧) : وأولى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعني يوم القيامة .

﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) ﴾ [السجدة] أى : ليس لكم الآن إمهال ؛ لأن الذى خلقكم يعلم سرائركم ، ويعلم أنه سبحانه لو أمهلكم لَعُدْتم لما كنتم عليه : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾

هذا المعنى كما نقول فى العامية (ادينى عرض كتافك) أى : انصرف عنهم ، فلم يَعُدْ بينك وبينهم لقاءٌ ، ولا جدوى من مناقشتهم والتناظر معهم فقد استنفدوا كل وسائل الإقناع ، ولم يَبْقَ لهم إلا السيف يردعهم ، على حَدِّ قول الشاعر :

أنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقَّبْ بعدَها وَعيداً ... فَإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمهُ

فقد بلَّغهم رسول الله وأنذرهم ، لقد بشَّرهم بالجنة لمن آمن ، وحذرهم النار لمن كفر فلم يسمعوا . إذن :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْىُ أو حَدّ مُرْهَفٍ

فالعاقل الوحى يقنعه ، والجاهل السيف يردعه .

وقوله سبحانه : ﴿ وَانتَظِرْ .. (٣٠) ﴾ [السجدة] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، أى : انتظر وعدى لك بالنصر والغلبة ، وقلنا : إن وعد الله محقق ، حيث لا توجد قوة أخرى تمنعه من إنفاذ وعده ، أما الإنسان فعليه حين يَعد أنْ يتنبه إلى بشريته ، وأنه لا يملك شيئاً من أسباب تنفيذ ما وعد به .

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن

يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤)﴾ [الكهف] وتعليق أمرك على مشيئة الله عز وجل يحميك أن تكون كاذباً إذا لم تَفِ بما وعدتَ به ، فأسباب الوفاء بالوعد لا يملكها البشر ، إنما يملكها خالق البشر سبحانه ، فإذا وعد فاعلم أن وعده متحقق لا محالة .

وقلنا : إنك حين تقول لصاحبك مثلاً : سأقابلك غداً أو سأفعل لك كذا وكذا ، نعم أنت صادق وتنوى الوفاء ، لكنك لا تملك فى الغد سبباً واحداً من أسباب الوفاء ، فلربما طرأ لك طارىء ، أو منعك مانع ، وربما تغيَّر رأيك .. الخ .

وفَرْق بين انتظار رسول الله حين ينفذ أمر ربه ﴿انتَظِرْ .. (٣٠)﴾ [السجدة] وبين ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾ [السجدة] فانتظار رسول الله لشىء محقق ، له رصيد من القوة والقدرة ، أما انتظارهم فتسويل نفس ووسوسة شيطان ، لا رصيدَ لها من قوة إنفاذ .

ومعنى ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾ [السجدة] أى : ينتظرون أن يحدث لرسول الله ﷺ شىء يمنعه من تبليغ رسالة ربه ، وهذا حمق منهم ، فقد كان عليهم أن يعلموا أن الرسول مُؤيَّد من الله مُرْسَل من قبله لهدايتهم ، وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ثم يُسْلِمه أو يخذله ، فسنة الله فى الرسل أن لهم الغلبة مهما قويتْ شوكة المعاندين لهم .

إذن : لا سبيلَ إلى ذلك ، ولا سبيلَ أيضاً إلى الخلاص منه أو حتى تخويفه ليرتدع ، ويدع ما يدعو إليه من منهج ربه .

وقد ورد هذا الانتظار فى موضع آخر بلفظ (التربص) فى قوله تعالى : ﴿تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾ [الطور]

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ..

(٥٢)﴾ [التوبة] أى : ماذا تنتظرون منا ونحن أمام حُسْنيين : إما النصر والغلبة عليكم ، وساعتها ندحركم ونُذلكم . أو الشهادة التى تضمن لنا حياة النعيم الباقية الخالدة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا .. (٥٢)﴾ [التوبة]

يعنى : تربَّصوا بنا ، فنحن أيضاً نتربص بكم ، لكن فَرْق بين تربُّصنا وتربُّصكم .

وهذه السورة سميت (السجدة) أولاً : لأن بها سجدة تلاوة ينبغى أن نسجد لله شكراً عندها ، والسجود يمثل منتهى الخضوع للحق - تبارك وتعالى - فإذا جاءت هذه الآية التى تهز كيان الإنسان يعلمنا ربنا أن ننفعل لهزَّة الكيان ، وأن نسارع بالسجود ، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك فى الصلاة .

فكأن فى هذه الآية أمراً قوياً وسراً عظيماً استدعى أنْ نُخرج السجود عن موقعه بأمر مَنْ شرع السجود الأول . إذن : لا بُدَّ أن فى آيات سجود التلاوة طاقات جميلة من نِعَم الله تُذكِّرنى به .

والحق سبحانه يريد أنْ يشعر الخَلْق أنهم يستقبلون نعماً جديدة ، لا يكفى فى شكرها السجود الرتيب الذى نعرفه ، فيشرع لها سجوداً خاصاً بها .

وفى السورة أيضاً بعض الإشارات التى وقف عليها العارفون وقالوا : إنها تضع نماذج لصيانة النفس الإنسانية ، وعدم بُعْدها عن حكمة خالقها ، ومن هذه الإشارات أن العين ترى الأشياء فتقول : هذا حسن ، وهذا قبيح ، ذلك من مجرد الشكل الخارجى ، لكن على المرء أنْ يتأمل الأشياء ويعرف معنى القبح .

القبح ليس ما قَبُحَ فى نظرك ، إنما القبيح الذى يُخرِج الحُسْن التكليفى عن مناطه ؛ لأن الخالق ـ عز وجل ـ خلق كل شىء جميلاً ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ..(٧)﴾ [السجدة]

فإذا قَبُحَ الشىء فى نظرك فاعلم أنك نظرتَ إلى جانب الشكل ، وأهملتَ جوانب أخرى ، وقُلْ إننى لم أتوصل إلى سرِّ الجمال فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الخالق سبحانه نثر المواهب بين خَلْقه بحيث تجد مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فلا تنظر إلى جانب واحد فتقول : هذا غنى ، وهذا فقير ، لكن انظر إلى الجوانب الأخرى .

ويُرْوَى أن سيدنا نوحاً عليه السلام رأى كلباً أجرب فبصق عليه، فأنطق الله الكلب الأجرب ، وقال له : أتعيبنى أم تعيب خالقى ؟ والمعنى أنه خلقنى لحكمة ، ولمعنى من المعانى .

وصدق القائل(١) :

لِلْقُبْحِ وَقْتٌ فيه يَظْهر حُسْنُه ... وَيُحمد مَنْ غشَّ البناءَ لَدَى الهَدْمِ

كذلك نثر الحق سبحانه حكمه ، ونثر خيره فى كتابه ، فلا تغنى آية عن آية ، ولا تغنى كلمة عن كلمة ، ولا حرف عن حرف ، لكن البصائر التى تَتلَقَّى عن الله هى التى تستطيع أنْ تقف على أسرار الله .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .


سورة الأحزاب

